خالد م. البرادعي

هجرة نزار قباني في فصول الزمن الاخضر

- ١ -

بعد هزيمه حزيران بايام .. ولعلها بعد على الاصابع ، خرج الشاعر الكبير نزار قباني على ملايين قرائه بقصيدة طويله ما اظن احدا يجهلها ، او يجهل الصجه التي احدثتها في حينها ،هي « هوامش على دفتر النكسه » (١) وكانت احد شواهد تلك المرحلة العنيفة والقاسية والسوداء من تاريخنا المعاصر . واذكر ان قصيدة نزار آنذاك احدثت ردة فعل عنيفة ذات شفين او محورين ندى قرائها اولا ، ولدى من حملوا مهمة النقد على ظهورهم المطحونة ثانيا .

وكان المحور الاول - اعترافا من قراء الشعر المعاصر بان نزار تحول تحولا مفاجئا ومدهشا من ترجمة هموم معينة تقع في دائرة الجنس وقضايا المرأة ، الى ترجمة هموم الملايين المناضلة من اجل حياة افضل. وقد اطلعهم في قصيدته الجديدة على ارهاصاته السابقة للحرب وعلى ثقافته التاريخية المدهشة ضمن التشكيل الجمالي (المطوب) على نزار والذي يحمل بصماته المتفردة الخطوط .. والتي لا تماثلها بصمات اخرى . وكان نزارا في تلك القصيدة كان معبأ بالقهر والغضب والرفض والنقمة المرة على التفسخ الفكري والسياسي والاجتماعي الذي سبق حزيران . وما ان حط غراب الهزيمة على وجه التاريخ العربي ، حتى تفجر بتلك القضية شعرا يتلوى بين التهكم والقهر والدمع والانتظار ، وكان قد اودع احلامه وتطلعاته عيون الصغار .. الاطفال الذين اعتبرهم امل المستقبل ومنقذي تاريخ الامة من الاحتراق . وجاء هذا التوهج اللاحق في القصيدة الطويلة كأجمل ما تكون النهايات - فنيا - وابرع ما يكون التخلص من دوامة الحزن واليأس والبكاء .

اما المحور الثاني لردة الفعل ، فهو نقمه على نزار نرجمها اهلها على شكل تساؤل طرح بعد القصيدة : أين كان نزار مختبئا قبل الهزيمة ؟ ولماذا لم يشارك الشعراء الملتزمين بترجمة هموم الامة خلال الفترة التي سبقت الهزيمة ؟ بل كانت مقدمة طبيعية لها ؟ وذهب بعض هؤلاء الى كتابة اراء عجيبة كتعليق على القصيدة ، تقوم على اتهام نزار بانه جزء من التفسخ الذي قاد الامة الى الهزيمة . ولعل هذا الاتهام جزء من فلسفة الانهزام والهروب والتملص من المسؤولية، تلك الفلسفه التي كان المعلمون العرب يتفنونها ببراعة فائقة ، وهي من الرسوبات القبلية التي تابى الاعتراف بالواقع ، وتقوم اصلا على التبرير والمراوغة في معالجة القضايا . كأن تلقي اللوم على القمر اذا غرقت لنا سفينة في البحر ، او نلقي اللوم على القلم اذا عجزنا عن الكتابة ، او نحمل القدر مسئولية تخلفنا .

لكن تلا الفريقين عجز عن ادراك بديهه اوليه في شعر نزار .. هي انه من اشد الملتزمين اخلاصا لالتزامهم ، وان قصائده الدائره في فلك الجنس هي من حيث موقفها الاخلاقي بمثابة سكاكين غرزها في اعناق المتعفنة من الجسم المهزول ليستأصل العفن والاورام، فيسترد الجسم عافيته . فالجنس وعقده في انساننا المعاصر آفة تبلعه، وليل شتائي يتخبط في متاهاته ، ومن يمتلك الجرأة منا لينكر ان ثلاثة ارباع الزمن الذي نعيشه نقضيه تفكيرا في مسائل الجنس ،اي ان الجنس في الانسان العربي دمل متورم يقع في باطن قدمه ولا يتمكن من مواصلة المسيرة ما لم يفقأ هذا الورم ويطهر مكانه ، كما وان اسقاطات الجنس تقع في الجانبين من حياتنا الاجتماعية والثقافية على حد سواء .

من هذه النقطة نستطيع اعتبار نزار ملتزما بقضية وجادا في التزامه الى النهاية ، اضافة الى قصائد كثيرة سبقت حزيران كانت تطل على الجوانب الاخرى من تخلفنا فتعريها . ككقصيدة « خبز وقمر وحشيش » التي سبقت حزيران بزمن طويل ، وقصيدة « يوميات عامل من دمشق » التي كتبت في الستينات كما اظن ، وعالج فيها الشاعر هموما مطروحة في كل بيت.

هذا لا يمنع طبعا من الاعتراف بان هزيمة حزيران احدثت تحولا في شعر نزار ، ودفعته للكتابة عن الجوانب التي تقع في صميم حياتنا السياسية والاخلاقية . ضمن جماليته الخاصة والمتفردة . وكانت هزيمة حزيران بمثابة انفجار جديد في شاعريته .

يا وطني الحزين
حولتني بلحظة
من شاعر ، يكتب شعر الحب والحنين
لشاعر يكتب بالسكين

واللحظة التي يعلن نزار فيها هذا التحول المفاجيء والجديد ، لا يمكن ان تكون لحظة بالمعنى الزمني لقياسها ، لان الذي رصد في

---

(١)نشرت في الاداب اولا ،ثم في كتيب مستقل ، ثم في « الاعمال السياسية لنزار » .

هذه القصيدة الطويلة جوانب السلب والاعتراء والتعفن في حياتنا .. نستطيع ان نقول انه انفجر في لحظة من لحظات الاشراق بعد ارهاصات ومخاضات طويلة .

وتناولت قصائده ذوات الوجه الاخر .. التي عرى فيها التخلف والتمزق والسلبيات المرعبة في حياتنا المعاصرة ، الى جانب وجهه الشعري الاول الذي حمل هموم الجنس كمعوق ومحبط في حياتنا .

والقصائد التي اسماها نزار بـ « الاعمال السياسية » ، والتي نرفض لها هذه التسمية لانها تحد من ثرائها وشموليتها ، كانت تتحرك جميعها في مجالات الرفض .. فهو يرفض التمزق وممالك الطوائف .. ويرفض الدجل السياسي ، ويرفض مسخ التاريخ والاحتماء المريض في ابراجه ، ويرفض كل السلطات التي اسهمت في هزيمة حزيران ، ويرفض التسلط الفردي الذي انسحق الانسان العربي تحت مطرقته ، ويرفض السجون وعالم المخابرات . وهو بالجملة يرفض عالما مهتزا مهزوما ممزقا . ويبحث عن عالم اخر .. مليء بالخضرة والحب والضوء والنماء . ومرة اخرى ، اؤكد ان المرفوض في عالم السياسة مرفوض في عالم الجنس لدى نزار .. والعالم المتوقع .. الخلاق .. المليء بالخير هو نفسه الذي بحث عنه نزار في الجانبين من شعره.

واذا كانت قصائده التي امتلأت بالسخرية من المتجرين بالشعور الديني .. والاحساس التاريخي .. والذين باعوا واشتروا وغنموا على حساب القضية الفلسطينية . تمثل حالة من حالات الشعب ، فهي حالة التوجس والانتظار . والترقب .. وحالة الاحساس بعفونة القائم. ومن ثم تجاوزه وتخطيه . والقصيدة التي رثى بها الزعيم الراحل جمال عبدالناصر ، بتفجعها وغضبها وغنائيتها الحزينة .. ونكهتها المأساوية « قتلناك يا اخر الانبياء » تقف الشاهد الصدق ، والمؤشر الاحمر في ساعة الاحداث التي تنذر بالانفجار ، بل هي قنبلة زمنية لم يحدد نزار لحظات انفجارها ، لكنها حبلى بانفجار .

نزلت علينا كتابا جميلا
ولكننا لا نجيد القراءة
وسافرت فينا لارض البراءه
ولكننا ما قبلنا الرحيلا
تركناك في شمس سيناء وحدك
تكلم ربك في الطور وحدك
وتعرى
وتشقى
وتعطش وحدك
ونحن هنا نجلس القرفصاء
نبيع الشعارات للانبياء
ونحشو الجماهير تبنا وقشا
ونتركهم يعلكون الهواء

ادانة السلطات المتفككة .. والممالك التركيبة كما اسماها في احدى قصائده . وتعرية ساحقة لها تنم لديه في مباشرة ذكية ووضوح يثير فينا اعادة النظر في المفاهيم التي تعلمناها حول الوضوح والغموض في الشعر ، مع التركيز على اتجاهه الجديد وموقفه الفكري بعد حزيران .

فالحالات البائسة التي اصطادها نزار من نفس الشعب ،والخطا المحموم الذي يسيطر على الواقع المهزوز، والامة التي تغلي وقائعها بالشكوك والحذر .. كل هذه الظواهر التي ترجمها نزار بمرثاته الفاجعة ، لا يمكن لها ان تكون الا استثناء في مسيرة الامة العربية . والاستثناء ـ عادة ـ حالةطارئة . ويبلغ هذا الانتظار المحموم ذروة توتره .. ونهاية مراحله في قصيدة « في انتظار جودو » الطويلة التي سجل فيها نزار خطاابداعيا متألقا في مسيرته الشعرية ، والتي تنبيء قارئها بان انتظار الشاعر قد تسطح الافق الذي لا بد له أن ينفجر

تعال يا جودو
فقد تخشبت اقدامنا انتظار
وصار جلد وجهنا
كقطعة الاثار
. . . . . .
. . . . . .
ان لم تجيء من أجلنا نحن
فمن اجل الملايين من الصغار

كان نزار يدق ابواب الزمن المقبل بكلتا يديه الداميتين ، بغضب وتمزق وحزن يشبه الجنون .. بحثا عن منقذ ، عن خلاص ، عن مطهر يكنس الدرن والوحل من طرقات التاريخ.. كل شيء يتحرك الى الوراء، كل شيء ساكن .. ولكن مثل هذه الحالة عادة لا تمثل حركة التاريخ. يعترف نزار باننا خارجون عن حركة التاريخ ، باسلوبه المميز الفريد ذي النكهة التي وصلت بين بصمته وبين هموم الناس اجمعين ..

هناك بطل ينتظره نزار .. اذن .. وينفجر كل شيء ليخرج البطل المخبيء الذي حبلت به الامة منذ ايام الهزيمة ، وانفجر فعلا ،وان السحابة التي كان نزار يراقب تحركاتها .. ويملأها بحزنه .. وحرارة ندائه .. ونكهة انتظاره . لا بد لها من ان تمطر .. وامطرت فعلا .. وكانت حرب تشرين هي البطل المنتظر ، ومع ساعات الحرب الاولى التي انتظرها نزار مع المنتظرين . وطرق لها من حيث هي جنين في رحم الزمن المقبل .. وتولد قصيدته التشرينية الاولى . « ملاحظات في زمن الحب والحرب » (١) .

وقبل الحديث عن القصيدة التشرينية اود الاشارة الى بعض المنجزات الجمالية التي تحققت لدى نزار خلال شعره ذي الوجه الاخر والذي كتب بعد حرب حزيران .

١ ـ استطاع ان يفرد الشبكة الشعرية في محيط اللغة على اكبر قدر ممكن من لالئها ، فكان يصطاد في كل قصيدة عددا لا يحصى من المفردات الجديدة .. والتي ما ان يلامسها بعصاه حتى تتشكل في صور جديدة ورموز شفافة .. تبهر بالرغم من وضوحها ، وقد ساعد بذلك على توسيع قاموس لغة الشعر المعاصر .

٢ ـ كانت طبيعة الاتجاه الذي تجدد لدى نزار بعد حزيران ، والذي اعتمد فيه نقل حالات التفكك السياسي .. واجواء الارهاب السلطوي ، والانفتاح على الهموم الملحة في جوانب حياة الفرد العربي، قد سمحت له ان يفيد من ثقافته التراثية العريضة .. .. مما اكسب شعره الحزيراني نفسا جديدا وبعدا خاصا ، وارتباطا ابداعيا بالموروث الحضاري للامة العربية .

٣ ـ النضوج الفني في رسم الصورة ، والاقتراب من الرمز ، وهذا الاتجاه بدا بالظهور عند نزار منذ قصائده المسماة « بالاوراق الاسبانية » . لكنه انفرد على معظم نتاجه التالي بشكل ملحوظ . فاكسب خاصة المباشرة في الاداء والتي ينفرد بها نزار بتوهج من بين كل الشعراء الواضحين ، لونا من الوان الغموض الشفاف ..

---

(١) نشرت في مجلة الاسبوع العربي اولا . ثم نشرت في كتيب مستقل .

واثرى القصيدة الى حد احتمال تأويل دلالاتها على اكثر من وجه واحد.

٤ ـ نقل الحالات المأساوية ضمن الزمن الايقاعي الاصيل الذي ينتمي الى شعرنا القديم .. وجاءت قصائده الحزيرانية شكيلا مزيجا من الغنائية والمأساوية .

٥ ـ عنصر الهكم او رسم اللوحات « الكاريكاتيرية » في القصيدة ومثل هذه الخاصة لم تكن ابدا في شعره السابق ، واصبحنا نتابع الصور الباكية الضاحكة في الشعر الحزيراني الجديد . وكانت هذه الخصائص كلها تتوالد وتندو في شعر نزار ، دون ان تفقده الخصوصية الذاتية التي يملكها في شعره منذ ان ظهر على الناس اوائل نتاجه الشعري ، اي أن نزار كان يعمق خطوط بصمته بادوات التوهج ، والوعي الكامل ، حتى لا تفلت خصوصيته الشعرية عن فلكها الخاص .

ـ ٢ ـ

اول ما نلاحظه في قصيدة « ملاحظات في زمن الحب والحرب » هو مألوفية الحرب ذاتها .. وكأنها لم تكن مفاجأة لنزار . الحرب في مطلع هذه الغنائية المليئة بالفرح هي ارتباط الحاضر بالماضي ، وارتباط المستقبل بالحاضر . فالسنوات الست العجاف كفترة دخيلة على تاريخ الامة العربية ، سنوات الهزيمة هي حالة طارئة . والتمزق شذوذ ، وملوك الطوائف كبوة من كبوات الامة ، وتأتي الحرب كصوت احتجاج مدو على لا معقولية حزيران الهزيمة ، ثم تزيحها من طريق الامة .

وليس غريبا ابدا ان تكون الحرب فصلا مألوفا مسكونا بالخضرة يصل اليه نزار بدون مفاجآت . لان قصائده السابقة لتشرين كانت استغاثة لهذه الحرب واستغاثة بها . كانت بحثا عنها . كانت مسيرا اليها . وجودو الذي نادى عليه نزار قد حضر .. وبين الاثنين ود ومعرفة ووشائج قربى ..

فرحة نزار اذن عودة من التيه ، وخروج من الظمأ ، واستئناف للمسير ، واسترداد للعافية بعد مرض .. والمرض لا يمثل الحالة الطبيعية للجسم .

يتخلى نزار دفعة واحدة عن كل اوجاعه واحزانه وبكائه وتفجعاته التي رافقته ونبتت في عامة انتاجه الحزيراني . ويتحدث بوداعة وهدوء الى حبيبته التي يقيم معها شكلا جديدا من العلاقات ، هو غير معروف في شعره السابق . وحبيبته في قصيدته هذه صديقة تمثل الطرف الصامت في الحوار . وهو الذي يتولى توضيح ملامحها الجديدة في لحظات الحرب .

هي الحرب تنقذنا بعد طول الضياع
وتضرم اشواقنا الغافيه
فتجعلني بدوي الطباع
وتجعلك امرأة ثانيه

واذا كانت لحظة العشق في شعر نزار هي التي ترفع المرأة من مخلوق ادمي الى كائن سماوي ، ومن امرأة من لحم ودم الى معادل جمالي ناصع يدور في أفق المثالية المطلقة .. وهذا ما نعرفه عن « حبيبة » نزار قديما ، فان لحظات الحرب في هذه القصيدة .. هي التي تفعل بالحبيبة الان ما كانت تفعله لحظات العشق في السابق.

اي أن المرأة في تشرين حضرت لدى نزار حضورا متكاملا حضورا واعيا يمسها في كنه ابعادها الجنسية ـ السياسية ـ الاجتماعية ـ التاريخية ـ وجعل المرأة ضمن هذه الابعاد شريكة في تكوينها وملامحها تماما مثل نزار غريبا في نفسه وصوره وغنائيته وتمثله المدهش للتراث وليعض جوانب الموروث الحضاري الغربي .

ويتخلى عن الهكم المرير ، وعن رسم الضحكات المأساوية التي ملأت قصائده الحزيرانية والتي جاءت في تلك المرحلة كأداة استحضار لحالة النفس العربية المحاصرة بين الضحك والبكاء ، بين الحياة والموت ، بين الحضور والاستلاب . وينساب في لوحاته الجديدة هادئا معافى من التمزق والحزن والقهر . مندفعا كالطفل يلتقط الحصباء الملونة من جداول الحب والنماء ويقدمها لحبيبته الجديدة .

« تركت عصور انحطاطي ورائي
تركت عصور الجفاف
وجئت على فرس الريح والكبرياء
لكي اشتري لك ثوب الزفاف »

هنا الشعب يتحدث بلسان الشاعر او الشاعر يحمل فرحة الشعب كله . فعصور الانحطاط رحلة سوداء .. ومرحلة قاتمة يحس كل الشعب بثقلها ويخجل منها . وتجيء مفاجأة ثوب الزفاف غير المتوقعة لتعد هذه اللوحة باضاءات ملونة تغرقها في مدار الدهشة. ونلاحظ ان نزارا تمكن من استحضار قافيتين مزدوجتين جاءتا رخاء كالماء الزلال بلا تكلف ولا تصنع ، لتضعنا امام مفاجأة جديدة اخرى .

وتمكن نزار ـ كعادته ـ من القدرة الفائقة على نقل الحالة التي يريد نقلها الى متلقيه . فحالات التذمر ونكهة الوجع ، وطعم الجرح المتشقق ، كلنا احسسنا بها ونحن نقرأ له على سبيل المثال « الممثلون » « الاستجواب » (الخطاب) (الوصية) (في انتظار جودو) ... وكلنا اتركنا حالة اللامعقول التي وضعتنا هزيمة حزيران فيها . وفي القصيدة الجديدة يرفعنا بنفس القدرة لنقطف ثمار الفرح .. ونشرب كاسات الغبطة . ونبتسم ابتسامة المطمئن الى العودة بعد سفر ليلي مرهق .

وكما استغاث ـ سابقا ـ ببعض المرتكزات التاريخية ، واستنجد ببعض الغابرين من صناع الحضارة العربية في حالات حزنه ويأسه، يستعين الان باستحضار بعض تلك المرتكزات لتوضيح بسمته ،واضاءة هويته ، ليعلن بثقة ان الحرب اعادت له ملامح وجهه القديمة .

والحرب في قصيدة نزار موقف انساني مفيء بالنبل والمثالية وليس ساحة للقتل وسفك الدماء . اي ان نزارا الذي بحث في كل اوراق الانقاذ بعد حزيران ، لم يجد غير الحرب منقذا ومخلصا وسراجا هاديا في ظلمات الزمان . وتقديس الحرب ، واضفاء صفة الاشراق الطفولي عليها واحدة من اهم الخصائص التي برزت في النماذج الجيدة من شعرنا التشريني . وهذا ما نطلع عليه في قصائد يوسف الخطيب ، ومحمود درويش ، وعبدالرزاق عبدالواحد ، وسميح القاسم وفايز خضور وغيرهم . واذا كان نزار قد سبق معظم هؤلاء للمشاركة في رسم صفة الحرب بالنسبة للعربي الذي تحاصره الاحزان وتأكله الهموم ويتهم بالاستسلام .. ويتخذ من الحرب منطلقا وحيدا لاستئناف الرحلة . اي ان الحرب في شعر تشرين كانت ضرورة . وفي قصيدة نزار منطقا حضاريا حول حتى شكل الانوثة وخرائطها في كيان

حبيبته . ففي زمن الحرب التي تمزق نزار بحثا عنها يسترد سوءه دفعة واحدة .

الاحظت ؟
كيف اخترقنا جدار الزمن
وصارت مساحة عينيك
مثل مساحة هذا الوطن
. . . . . .
الاحظت ؟
هذا التحول في لون عينيك
حين استمعنا معا لبيان العبور ؟
. . . . . .
تصيرين في زمن الحرب ..
مصقولة كالمرايا
ومسحوبة كالزرافه

ومن خلال هذه اللمحات الخاطفة التي ينقلها نزار من كيان حبيبته كدلالة على التحول العظيم الذي احدثه الحرب ، نطلع على اللحظات المشرقة التي غرقت في ضوئها الذات العربية في تشرين واستعادت تعاملها السوي مع التاريخ والواقع والانسان .

وقصيدة نزار هذه لا تنتهي الى شعر الحرب بل ترصد تحركات النفس الجذلي في ساعات الحرب . وتصطاد اللحظات المتوهجة في العمق الانساني في مرحلة من مراحل التاريخ فتأسرها وتمنعها من الفرار . ومن وراء الخط الاخضر .. خط الفرح الذي ارتسمت القصيدة فوق تموجاته ، يطلعنا الشاعر على تاريخ النفس العربية في سنوات الهزيمة .

تقع القصيدة في مجموعة من اللوحات . لكل لوحة دلالة تتوهج في تشكيلها . وتتحرك ضمن ايقاع تفعيلة المتقارب . في غنائية صافية حرص نزار على التمسك بها منذ عهد بعيد . وتجيء بالرغم من كل الصور الجديدة فيها تتمة لتطوره واحتفاظه بشخصيته الابداعية التي لا تغيب ابدا .. ولا تمحي في ظلال الشخصيات الابداعية الاخرى . وتكتسب لوحات القصيدة خاصة فنية جديدة في شعر نزار هي التوحد الذي تم بين المرأة كإنسان مؤنث ، والحضارة العربية بارضها وتاريخها ومدنها .

واذا كانت عواصف التجديد تسمح لكثير من شعرائنا المعاصرين بالتخلي عن جوانب من شخصياتهم ، فعند نزار يتخذ التجديد سبيلا لتعميق شخصيته المنفردة والتي جعلت منه حالة ليس لها مثيل في تاريخ الشعر .

الكويت

الفكر العربي
في معركة النهضة
تأليف الدكتور انور عبدالملك

« هذا الكتاب موجه في المقام الاول الى قطاع محدد من جمهور القراء في العالم العربي ، هو قطاع الجيل الجديد من شبابنا العربي في كل مكان ، شباب الريف والمدن ، شباب الفكر والعمل ، شباب الانتاج والعلم والسلاح . ربما يجد فيه بعض رجال الفكر والعمل من جيلنا ـ الذي كان « على موعد مع القدر » ـ اسهاما في نهضتنا الحضارية . نقول « البعض » ، اذ ان منهج التنقيب عن مستقبل الفكر العربي في عصر النهضة الحضارية ، وهو المنهج النابع من تفيير الاطار المعرفي ـ وهو جوهر عملنا النظري القائم منذ ١٩٥٩ ، والمرتقب ، الا وهو تجديد الفلسفة الاجتماعية على ضوء تفاعل حضارات الشرق والغرب ـ نقول : ان هذا المنهج وذلك التجديد النظري يمتّان على وجه التحديد الى مرحلة الثورة الوطنية التقدمية وغايتها النهضة الحضارية ، وهي مرحلة جديدة حقا على المفاهيم والتقاليد الفكرية الموروثة للاجيال السابقة من حركتنا الوطنية المتأقلمة في اغلب الاحيان في اجواء ثقافية ـ فكرية استشراقية ، اوامية ، او سلفية .

وهو كتاب يتصدى للاجابة على سؤال مركزي في تحركنا العربي المعاصر ، الا وهو : كيف يمكن ان نقيم علاقة جذرية ، عضوية ، متصلة ، بين تحركنا الوطني التحرري المتجه الى الثورة الاجتماعية والهدف الاشتراكي من ناحية ، وبين اقامة فلسفة تواكب هذا التحرك الذي فرض نفسه على العالم أجمع ، تكون ، على وجه التحديد ، فلسفة النهضة الحضارية في مصر والعالم العربي ؟ » . ـ من المقدمة ـ

منشورات دار الآداب — الثمن ٨٥٠ قرشا لبنانيا